الفصل العاشر

النثر الجاهلي

تمهيد

وهو النثر الذي عُنى النقاد ببحثه ودراسته بوصفه أدباً يُقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يُحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء[1].

وإذ اقتصرت الكتابة على الأغراض السياسية والتجارية، لصعوبة الحصول على أدواتها، فقد كان النثر الجاهلي موضوع خلاف شديد بين العلماء من مستشرقين وعرب، فذهب (جيب) إلى إنكار هذا النثر، وحجته «أن النثر الفني، لغة العقل والتفكير، لا يظهر إلا في أمة تبلغ درجة عالية من المدنية والحضارة خلاف الشعر، لغة العاطفة والخيال، فإنه يرافق الإنسان منذ طفولته الاجتماعية»[2].

ويرى كارلو نالينو «أن العرب في الجاهلية لم يخرجوا في النثر عن قدر الإنشاء القصير والمقطعات»[3].

وأجمع علماء العرب على أن الجاهليين كانوا يجيدون النثر الأدبي، وآية ذلك أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مُبين وأنه تحدىّ العرب في أن يأتوا بمثله أو بعضه. ومن ثمّ كان لهم هذا النثر الذي وصل إلينا القليل منه لصعوبة روايته في حين لقي الشعر انتشاراً أكثر من النثر، وكان أوفر حظاً من العناية والاهتمام، وهو بالقياس إلى النثر أكثر ما وصل إلينا من الأدب الجاهلي، قال ابن رشيق: «ما تكلمتْ به العرب من جيّد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يُحفظ من المنثور عُشره، ولا

(1) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص398.
(2) مجلة الأدب والفن، العدد2، ص2 وما بعدها.
(3) تاريخ الآداب العربية، ص 79و80.

ضاع من الموزون عُشره[1]. وقد يكون المقصود بالنثر ههنا ما كان يستعمله الناس في حياتهم اليومية، ذلك أن النثر الفني كان أقل مادة، لحاجته إلى التفكير والروية، فضلاً عن حاجته إلى وسائل التدوين وعمادها الكتابة حتى يتسنى حفظه من الضياع، في حين كان الشعر أسهل حفظاً.

ويمكن تقسيم النثر الجاهلي إلى عدة أنواع، وهي:

1. الخطابة.
2. الأمثال والحكم.
3. سجع الكهان.
4. الوصايا.
5. القصص.

النثر لغة: في أصل اللغة النشر والتفريق، ومنه اشتقت الدلالة الاصطلاحية لمفهوم النثر حيث يقصد به الكلام المرسل غير الموزون ولا المقفى وهو خلاف المنظوم، ويعد الفن الأدبي للنثر وسيلة من وسائل التعبير الفكري الإنساني ويقسم على نوعين:-

1- النثر الكلامي 2- النثر الفني

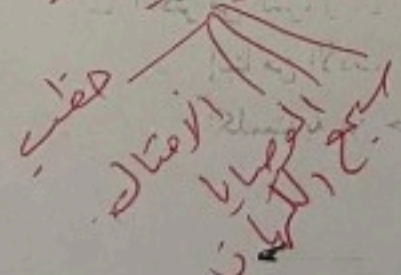

(1) العمدة، 1/ 8.

المبحث الأول

الخطابة

تُعدّ الخطابة من فنون النثر الشفاهي، وقد عرفت منذ العصر الجاهلي إذ استعملها العرب في عرض قضاياهم، أو في الرد على خصومهم، أو لإقناع الآخر لاستمالته. ومن ثم فهي وسيلة إقناع وإمتاع، والأصل في تذوقها أن تتلقاها الأذن لحظة إلقائها، وخصوصاً في العصر الجاهلي الذي طغت فيه الأمية على الناس.

وعناصرها الاتصالية، هي:

1. المرسل (الخطيب).
2. الرسالة (الخطبة).
3. المرسل إليه (المستمعون).
4. قنوات الاتصال (الأذن والعين).

مكانتها

كان للخطابة في العصر الجاهلي مكانة مرموقة، عند العرب، إذ تلت الشعر في التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم. وتوافرت لها أسباب الازدهار، فقد امتلكوا ناصية البيان وصلابة اللسان وحضور البديهة، وتهيّأت لها الظروف إذ كثرت المنازعات والخصومات بينهم، فكانت مجالاً لمنافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب.

وتعدّدت مواقف الباحثين من الخطابة الجاهلية، فقد أنكر طه حسين ازدهارها، إذ يقول: لا أنكر أنه قد كان للعرب قبل الإسلام خطباء، ولكنني لا أتردد في أن خطابتهم لم تكن شيئاً ذا غناء، وإنما الخطابة العربية فن إسلامي خالص[1]. ورأى شوقي ضيف أن الخطابة الجاهلية كانت مزدهرة، وأن منزلة الخطيب كانت فوق منزلة الشاعر، واستند إلى أقوال القدماء أمثال أبي عمرو بن العلاء والجاحظ، اللذين اتفقا على أن الشاعر كان أرفع قدراً من الخطيب، فلما كثر الشعر والشعراء وانحرفوا عن

(1) في الأدب الجاهلي، ص331.

رسالة الشعر صار الخطيب عندهم فوق الشاعر وأعظم قدراً منه[1]، وذلك بوصفه صوت العقل الذي ارتبط بمواقف التفاوض والمشاورة والوفادة، على حين ظل الشاعر صوت الوجدان للقبيلة.

وردّ غازي طليمات على ذلك، فوجد في رأي شوقي ضيف غُلوّاً، واستنبط من أقوال القدماء تفسيراً آخر خلاصته أن الشعر كان أشيع من الخطابة وأنجح.

والحق أن الشعر كان أكثر ازدهاراً، وأن الشعراء كانوا أكثر عدداً، وقد يكون الشاعر خطيباً، من أمثال عامر بن الطفيل وعمرو بن كلثوم، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي. في حين نجد الخطباء عامة لم يبرعوا في الشعر أمثال عامر بن الظرب العدواني، وقُس بن ساعدة الإيادي وهاني بن قبيصة الشيباني، وهاشم بن عبد مناف.

وكثيراً ما يذهب كلام الخطيب ويبقى كلام الشاعر، لصعوبة حفظ النثر وسهولة حفظ الشعر وروايته، فضلاً عن أن العرب في الإجمال كانوا أميين لا يعرفون التدوين ولم تتوافر لهم أدواته إلا في نطاق محدود. ولعل في خبر المنافرة بين عمرو بن كلثوم والحارث بن حلّزة دليلاً على أن الشعر كان أعلى مقاماً من الخطابة؛ فمعلقة ابن كلثوم ذاعت على ألسنة بني تغلب جيلاً بعد جيل، في حين اتسمت معلقة الحارث بالمنطق وحُسن العرض والقدرة على الإقناع.

أنواع الخطابة

توافرت في العصر الجاهلي أنواعٌ من الخطب، اختلفت باختلاف متطلباتها، كالمنازعات القبلية، والوفود على الملوك والأمراء، وتوجيه النصح والإرشاد، وبث الحمية في المتحاربين، والتعبير عن التواصل الإنساني، وأشهر أنواعها:

1. **خطب المنافرة**

المنافرة هي أن يفخر رجل على رجل أو قبيلة على قبيلة، بحضور حَكَم يحكم بينهما، حيث يذكر كل خطيب مفاخِرَه أو مفاخِر قبيلته، كمنافرة علقمة بن عُلاثة

(1) انظر: البيان والتبيين، 1/ 221، و 4/ 83.

وعامر بن الطفيل، وتعد من أشهر منافراتهم؛ لكثرة من اشترك فيها من الشعراء والحكام. وبدأت في حوار عنيف بين عامر وعلقمة[1]:

- قال عامر: والله لأنا أكرم منك حسباً وأثبت منك نسباً، وأطول منك قصباً.
- قال علقمة: والله لأنا خير منك ليلاً ونهاراً.
- قال عامر: والله لأنا أحَبُّ إلى نسائك أن أصبح فيهن منك.
- قال علمقة: أنافرك أني لبرّ وأنك لفاجر، وأني لولود وأنك لعاقر، وأني لَعفّ وأنك لعاهر، وأني لوافٍ وأنك لغادر.

وقد حكم هذه المنافرة هرم بن قطبة الغزاري وقد رآه عمر بن الخطاب ﷺ يوماً في المسجد، فقال له: «أرأيت لو تنافرا إليك -يعني علقمة وعامراً- أيهما كنت تنفر؟ فقال: يا أمير المؤمنين لو قلتُ فيها كلمة لاعتدتها جذعة، فقال عمر: لهذا العقل تحاكمت إليك العرب»[2].

وقد يعقب المنافرة خطبة يلخص فيها الحاكم رأيه، كقول نُفيل بن عبد العزى حين تنافر إليه عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ وحرب بن أمية، فنسمعه يخاطب حرباً[3]: يا أبا عمرو! أتُنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة، وأوسم منك وسامة، وأقل منك ملامة، وأكثر منك ولداً، وأجزل صَفْداً[4]، وأطول منك مذوداً[5]؟. ومن المنافرات المشهورة منافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي إلى الأقرع بن حابس[6]. ويلاحظ أن أكثر منافراتهم مسجوعة.

2. خطب الوعظ

وتدور حول مشكلة الموت والمعاناة من الضياع، وتعد خطبة قس بن ساعدة أشهر خطب الوعظ وقد ألقاها في سوق عكاظ حيث رآه النبي ﷺ على جمل أحمر

(1) الأغاني، 5/ 55.
(2) البيان والتبيين، 1/ 237.
(3) تاريخ الطبري، ص1091.
(4) الصفد: العطاء.
(5) المذود: اللسان، والمقصود أفصح.
(6) الألوسي، بلوغ الأرب، 1/ 301.

وهو يقول: أيها الناس، اجتمعوا، واسمعوا وَعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت[1]، ومن أشهر الخطباء الوعاظ المأمون الحارثي الذي خطب في قومه.

3. خطب الوفادة

وكانت شائعة بينهم حين يفدون على الأمراء والسادة، إذ يقف رئيس الوفد بين يدي الأمير من الغساسنة أو المناذرة، فيجيبه متحدثاً بلسان قومه. وأشهرها خطبة أكثم ابن صيفي[2] بين يدي كسرى، ومنها قوله: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمّها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة[3]، والشر لجاجة[4]. والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء[5]، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر... [6].

وهي خطبة كما ترى حافلة بالحكم والأمثال المتناثرة، وأنها قصيرة الجمل خالية من المبالغة والتزويق، وفيها بعض السجع، وأفكارها مفككة تخلو من وحدة الموضوع ومن التقسيم المنطقي الذي يقوم على نمو الأفكار وتصاعدها.

4. خطب الحرب

وتدور حول إثارة الحميّة، والدعوة إلى النزال والصبر على القتال. ومن أشهرها خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني، إذ يحرّض قومه يوم ذي قار بين العرب والفرس، وفيها انتصر العرب على الفرس، وقد قال فيها: «يا معشر بكر! هالك معذور، خير من ناجٍ فرور، إنّ الحذر لا يُنجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر. المنيّة ولا

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، 1/ 309.

(2) أكثم بن صيفي: سيد من سادات تميم، كان يقيم بالحجاز، أدرك الإسلام لكنه توفي على الشرك بعد البعثة النبوية بثلاث سنين.

(3) مهواة: مهلكة يهوي فيها الإنسان.

(4) لجاجة: عناد وتمادٍ في الخصومة.

(5) وطيء: سهل لين.

(6) انظر: السيوطي، المزهر، 1/ 1.

الدّنيّة. استقبال الموت خير من استدباره. الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور. يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا بد».

وهذا فضلاً عن خطب الزواج (الإملاك)، وخطب إصلاح ذات البين، وخطب التعزية والتهنئة.

ومن أمثلة خطب الزواج في الجاهلية، الخطبة التي ألقاها أبو طالب في زواج الرسول ﷺ بالسيدة خديجة بنت خويلد، إذ يقول[1]: «الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم، وجعل لنا بلداً حراما، وبيتاً محجوجاً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يُوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه، براً وفضلاً، وكرماً وعقلاً، ومجداً ونُبلاً، وإن كان في المال قُلٌّ، فإنما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بن خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصّداق فعليّ».

سَنَن الخطباء

اجتمعت جملة من السنن والتقاليد في الخطابة الجاهلية؛ فكانوا يخطبون على رواحلهم في الأسواق العظام والمجامع الكبار[2]، ويلوثون على رؤوسهم العمائم، ويشيرون في أثناء النطق بالمخاصر، والعصيّ والقِسيّ، راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض[3].

وقد أثارت الشعوبية في موقفها من العرب عادة اتخاذ العصي والمخاصر في أثناء خطابتهم، فردّ عليهم الجاحظ مُبيّناً فوائد العصا، إذ يقول: إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة التهيُّؤ للإطناب والإطالة[4].

ومن صفات الخطيب الجيد أن يكون جَهْوري الصوت، حاضر البديهة، حسن الالتفات، قوي الشخصية، قوي الحجة، وكان يعيبون فيه التنحنح والارتعاش والتعثر

---

(1) انظر: محمد رجب النجارن النثر العربي القديم، ص88.

(2) انظر: على الجندي، تاريخ الأدب الجاهلي، ص76.

(3) انظر: البيان والتبيين، 3/ 7.

(4) م.ن، 3/ 7.

في الكلام، والخوف من لقاء الناس، ومسّ الذقن والسّبال والشوارب[1]. ولم يقفوا عند صقل الألفاظ وتجديدها، وإنما كانوا يتزيّدون في جهارة الأصوات، كما كانوا ينتحلون سعة الأشداق وهدل الشفاه[2].

وقد يجيد بعض الخطباء خُطبهم، فيحفظها الرواة، ويسمّونها بأسماء خاصة، فمن خُطبهم العجوز وهي خطبة لأل رقبة، والعذراء وهي خطبة قيس بن خارجة في حرب داحس والغبراء[3].

خصائص الخطابة

يرى شوقي ضيف أن معظم الخطب الجاهلية منتحلة، وأنه قيست على نماذج جاهلية مسجوعة، وخصوصاً خطب المنافرة والمفاخرة التي سبقت الإشارة إليها. في حين كانوا يستعملون المنثور المرسل في خطب الصلح والمعاقدة والمعاهدة.

ومن يقرأ ما وصل إلينا من تراثهم الخطابي يُشعر أنهم كانوا يبتغون التجويد في كلامهم[4]، وتمثل ذلك في عنايتهم بالسجع والاستعارة، واختيار الألفاظ القوية الناصعة.

وتفتقر خطبهم إلى المنهجية الواضحة، فمن الخطباء من كان يرتجل خطبته ارتجالاً، ومنهم من يبدأ بالعبارة المألوفة (أما بعد)، فضلاً عن أنها تفتقر إلى ترابط العبارات والنمو المتصاعد بالفكرة.

وكثيراً ما يستشهدون بالشعر، سواء في ثنايا الخطبة أو في خاتمتها، على نحو ما نرى في خطبة قُس بن ساعدة. ويُكثرون من الحكم والأمثال وهي خاصيّة أشد وضوحاً في خطبة أكثم بن صيفي، كقوله: المرء يعجز لا محالة، أفضل الأولاد البررة، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة[5]، ولعل هذا يدل دلالة واضحة على خلو خطبهم من الروابط القوية.

---

(1) انظر: البيان والتبيين، 1/ 372.

(2) م.ن، 1 /13-14.

(3) انظر: م.ن، 2/ 14.

(4) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص418.

(5) م.ن.

وعُرف في الجاهلية عدد كبير من الخطباء، فمن خطباء القبائل قس بن ساعدة في إياد، وأكثم بن صيفي في تميم، وعامر بن الظَّرب في عدوان، وعمرو بن كلثوم في تغلب، وهانئ بن قبيصة في شيبان، وقيس بن خارجة في غطفان، وزهير بن جناب في كلب وقضاعة، وسحبان بن وائل في باهلة.

وممن اشتهروا بالخطابة في المدن هاشم وأمية ونُفيل بن عبد العزى، وعتبة بن ربيعة وسهيل بن عمرو في مكة، وقيس بن شماس وسعد بن الربيع في يثرب.

ويرى شوقي ضيف أن كثرة هؤلاء الخطباء تؤكد أن منزلة الخطيب في الجاهلية فوق منزلة الشاعر. وهذا رأي غير صائب، فقد كان الشاعر يحتل المنزلة الأولى، وكان الشعراء يفوقون الخطباء عدداً، فضلاً عن أنه لم يصح ما أثر عنهم من خطب، إذ تزيّد الرواة فيها، وفي المقابل فإن ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي أكثر، مع ما في هذا الشعر من وضع وانتحال.

نموذج من الخطابة الجاهلية

خطبة قس بن ساعدة الإيادي

كلمة عن الخطيب

خطيب جاهلي، من قبيلة إياد، يوصف بأنه خطيب العرب وشاعرها، وحليمها وحكيمها في عصره[1]، ويقال إنه أول من قال في كلامه: أما بعد، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا....."[2]. وإذ قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال: ما فعل قس ابن ساعدة؟ قالوا: مات يا رسول الله. قال: كأني انظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أجدني أحفظه. فقال رجل من القوم: أنا أحفظه يا رسول الله. قال: كيف سمعته يقول؟ قال سمعته يقول: أيها الناس: اسمعوا وعوا....."[3]. وكانت وفاته على الأرجح قبل البعثة النبوية بحوالي عشر سنوات.

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، 15/ 246.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

النص[1]:

أيها الناس، اسمعوا وعوا[2]، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، آيات محكمات، وسقف ونبات، ونجوم تزهَر، وبحار تزخر[3]، وليلٌ داج[4]، وسماء ذات أبراج.

ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرضوا فأقاموا، أم تُركوا فناموا، يا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ وأين الفراعنة الشداد؟

في الـــذاهبين الأولـيـــــن مـــن القـــرون لنـا بـصـائر[5]
لمـــا رأيـــت مـــواردا للمـــوتِ لـيـس لهـــا مـصـادر
ورأيـــتُ قـــومي نحوهـــا تمـــضي الأصـــاغر والأكـــابر
لا يرجـــع الماضـــي إلـــيّ ولا مـــن البـــاقين غـــابر[6]
أيقنـــتُ أنـــي لا محـــا لـــة حيـث صـار القـوم صـائر[7]

لم يحفظ لنا القدماء من نثر قس بن ساعدة إلا خطبته هذه، وبعض أقواله[8]. ويبدو أنه كان ينكر ما شاع في الجاهلية من معتقدات فاسدة ومنكرات موبقة.

ألقى قس خطبته في الناس بسوق عكاظ، يذكّرهم بدلائل قدرة الله ليؤمنوا به، ويُذكّرهم بالموت الذي هو غاية كل حي. ويختمها بأبيات من شعره مُذكّراً بمصير الأجيال الماضية كيف وردت منهل الموت، وأنه سيرده هو والناس جميعاً.

---

(1) البيان والتبيين، 1 / 308 و 309.
(2) عوا: فعل أمر من وعى أي منهم.
(3) تزخر: تمتلىء وتموج.
(4) داج: مظلم .
(5) بصائر: عِبَر وأفكار.
(6) غابر: باق.
(7) لا محالة: لا مفر ،لا بُدّ.
(8) انظر: القالي، أماليه، 2/ 36.

سمات وخصائص:

تتميّز هذه الخطبة بما يلي:

1. تعد الخطبة نتاج خبرة واسعة خصبة متنوعة عاشها الخطيب.:
2. السجع الجميل غير المتكلف، ولعلهم كانوا يسجعون لكي يسهل حفظ خطبهم، ولكي يكون لمواقفهم وقع موسيقي في الأسماع.
3. الجمل قصيرة متوازنة، ولكنها غير مترابطة.
4. كثرة الحكم والأمثال.
5. جاءت مُذيّلة بالشعر.